الرسالة الحاتمية

فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

١

توطئة

وما الدهر الّا من رواة قصائدي : اذا قلتُ شعرًا ، اصبح الدهر مُنشدا :
فسار بـه من لا يسير ، مشمّرًا ، وغنّى به من لا يغنّي ، مغرّدا .

هكذا تنبأ المتنبي عن شعره ، وهكذا كان ! فلم يكن يُنشد القصيدة الا سارت في البلاد تحدو بها الركبان من منزل الى منزل ، وينقلها الادباء من مجتمع الى مجتمع ، حتى اصبح فريدًا في تلك الضجّة التي حدثت حول شعره ولا تزال ، وفي تلك الشهرة التي تمتّع بها في حياته ولم تكن لتنتهي بعد مرور الف سنة ، بل لتزيد . فلا عجب اذن ان تباينت فيه احكام الادباء ، وتعدّدت في قيمته المؤلّفات ، فتعصّب عليه الكثيرون من ادباء عصره وغير عصره ، ودافع عنه الكثيرون كذلك ، حتى اوجد تطاحن الحزبين حزبًا ثالثًا توسّط المتناقضين ، وانتدب نفسه للحكم ، فكتب القاضي الجرجاني « الوساطة بين المتنبي وخصومه »[1] وافرد ابو منصور الثعالبي في « يتيمته »[2] قسمًا صالحًا لذكر ما للمتنبي وما عليه .

---

١) طبعت « الوساطة » في صيدا سنة ١٣٣١ هـ. (١٩١٢) بعناية احمد عارف الزين ، مع مقدّمة وفهارس .

٢) طبعت « اليتيمة » في دمشق ، وقد خُصّ فيها المتنبي بنحو تسعين صفحة من الجزء الاول . ثم طبع هذا البحث في مصر ، على حدة .

وكان من الذين همّهم المتنبي ابو علي محمد بن الحسن بن المظفّر المعروف بالحاتمي ؛ واستفزّ حقده ان ابا الطيب ، لما قدم بغداد ، بعد عودته من مصر ، ترفّع عن مدح الوزير المهلّبي ، والحاتمي من المتمين اليه . فكان ذلك من مثيرات غضبه. فما زال يسعى حتى قصد المتنبي في داره ، فتهجّم عليه ، واقذعه ، وزعم انه اظهر له سرقاته كلها وبيّن عيوب شعره في ذلك المجلس . وصنّف في المتنبي رسالتين : الاولى سمّاها « الموضحة » ، وتُدعى « الحاتمية » ايضاً ، ذكر فيها سبب زيارته للمتنبي ، ووصف ما جرى في تلك الزيارة التي سرعان ما تحوّلت الى مجلس مناظرة فمهاترة خرج منه الحاتمي ، على قوله ، ظافراً كل الظفر [1] . والثانية ، وهي المعروفة « بالحاتمية » بحصر المعنى ، اورد فيها « ما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة » . وهذه لطيفة اللهجة ، على جانب عظيم من التأدّب ، بل على جانب من الميل الى المتنبي والتعصّب له حتى يكاد الكاتب يفضّله على الفلاسفة الاقدمين ، كما يظهر في مقدّمته ، مما يحيّر المطالع ، فيستغرب ان يكون كاتب الرسالتين واحداً ، ويهمّ ان يشكّ لولا اجماع مؤرّخي الادب .

ومهما يكن من أمر فان للرسالة الحاتمية قيمة جزيلة بما تدلّ عليه من وفرة اطلاع صاحبها ، ومن فضل ابي الطيّب في شعره الحكمي فانه ، ان كان اتى ذلك « عن فحص ونظر وبحث — كما يقول الحاتمي — فقد اغرق في درس

---

١) من هذه الرسالة نسخة خطية في دار الكتب الكبرى ، في مصر ، في مجموعة ٢٠٣٩ ادب . وتجد القسم الكبير منها ، مع اختلاف قليل ، في :

ياقوت : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، طبعة (Margoliouth) ، الجزء السادس ، مصر ، ١٩١٣ : ص ٥٠٤–٥١٨ .

ابن خلكان : وفيات الاعيان ، وانباء ابناء الزمان ، طبعة بولاق ١٢٩٩ه. (١٨٨١) ، الجزء الاول ، ص ٦٤٦–٦٤٨ .

يوسف البديعي : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي — على هامش العكبري — مصر ١٣٠٨ه. (١٨٩٠) ، ص ١٤٤–١٧٣ .

وتجد ، في ما خصّ زيارة الحاتمي للمتنبي ومناظرتها ، ملاحظات مفيدة واعتبارات جديرة بالذكر في مقال نشره كامل كيلاني في المقتطف ، سنة ١٩٣٠ ، ص ١٨٩ و٢٢٤

الطوم ؛ وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ العربية ؛ وهو ، على الحالين ، على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل » ؛ وبما تفيده طلّاب الادب العربي وتفاده من مستندات لدرس شعر المتنبي ، ونقاط للمقابلة بينه وبين غيره من مظاهر الادب الاجنبي ، ومن دلالة على طريقة مقابلة الآداب هذه في عصر الكاتب.

هذا ، وللرسالة طبعتان ؛ ظهرت الاولى في مؤلف للقس انطون بولاد سماه « راشد سوريا » وطبعه في بيروت سنة ١٨٦٨ . وظهرت الثانية في مجموعة « التحفة البهية والطرفة الشهية » المطبوعة في القسطنطينية سنة١٣٠٢ه (١٨٨٤). الا ان الطبعتين تختلفان قليلًا ، وفيها عدة نواقص . فضلاً عن كونها عزيزتي الوجود ، في عصرنا ، لان الكتابين نادران ، ولم تُفرد الرسالة عنها فتظهر على حدة .

وكنا قد وقفنا ، في المكتبة الشرقية ، على نسخة خطية للرسالة غاية في الجمال ثم على نسخة أخرى ، فقابلناهما وعرضناهما على الطبعتين السابقتين ، فاذا بعض الاختلافات والزيادات . فرأينا من الضروري ان نُعدّ لهذا الاثر القيّم طبعة لائقة نبذل وسعنا في دقتها ، ونعلق عليها بعض الحواشي ، بعد ان نقدم بحثاً في ما نعرفه من حياة صاحبها [1] ، ووصف المخطوطتين المذكورتين ، آملين ان يكون في ذلك خدمة للادب العربي ولمن يهتم به من المريدين ، وهم يزدادون يوماً بعد يوم.

---

١) اما المتنبي فلا نرى لزوماً للترجمة له بعد ان اسهبنا في الكلام عن حياته وشعره في المشرق (٢٥[١٩٢٧] ٨٣٠ ، ٩٠٠) و (٢٦[١٩٢٨] ٥١) ؛ وفي الروائع (الجزءان ١١ و١٢ — بيروت ١٩٢٧)

الحاتمي

؟ — ٩٩٨

الرجل

نشأته

اسمه – دروسه

هو ابو علي [١] محمد بن الحسن [٢] بن المظفر البغدادي ، المعروف بالحاتمي نسبةً الى بعض اجداده [٣] . اخذ الادب عن ابي عمر الزاهد [٤] ، غلام ثعلب. وذكر ياقوت [٥] انه ادرك ابن دريد ، واخذ عنه . ونحن نعرف ان ابن دريد قدم بغداد سنة ٩٢٠ وتوفي فيها سنة ٩٣٤ ، فيكون الحاتمي تتلمذ له في هذه الحقبة .

ولا نعلم ، غير هذا ، شيئاً يُذكر عن نشأته واول شبابه الا ما يذكره هو نفسه ، في احد كتبه المسمّى « الهِلباجة » او « تقريع الهلباجة » من انه خدم سيف الدولة ، وهو ابن تسع عشرة سنة ؛ « فوُزن في مجلسه ». ثم يأخذ بمدح نفسه ، والتبجّح بمعارفه – على نحو ما عوّدنا في سائر كتاباته – فيسمّي ، من اقرانه في مجلس سيف الدولة ، ابا علي الفارسي ، وابا عبدالله بن خالويه ، وابا الطيب اللغوي . ويعلمنا انه « نازع العلماء ، ومُدح في مصنفاتهم ، وعُدّ في الافراد

---

١) وفي دائرة المعارف للبستاني : ابو عبدالله – ٦ : ٦٣٨

٢) وفي يتيمة الدهر للثعالبي : ابن الحسين – ٢ : ٣٧٣ ، ولعله تصحيف .

٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ١ : ٦٤٩

٤) قال الحاتمي عن نفسه انه اعتلّ يوماً فتأخر عن مجلس شيخه المذكور . فسأل عنه فقيل له انه مريض. فجاءه يعوده ، فوجده قد خرج الى الحمّام ، فكتب على بابه باسفيداج :

واعجب شيء سمعنا به عليلٌ يعادُ فلا يوجد !

(ابن خلكان ١ : ٦٤٨)

٥) ياقوت : ارشاد الاريب ، ٦ : ٥٠١

الذين منهم ابو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني .»[1] الى غير ذلك مما لا شاهد لنا عليه الا الحاتمي نفسه . الا انه لا يقول لنا اين خدم سيف الدولة . وان تعداده لهؤلاء العلماء يدلّ على انه اتصل بالملك الحمداني في مدينة حلب ، وسيف الدولة لم يدخلها الا سنة ٩٤٤ ، على اثر انتزاعه اياها من يد اميرها احمد بن سعيد الكلابي . فلو قدّرنا ان الحاتمي اتصل به ، اذ ذاك ، وانه كان ابن تسع عشرة سنة ، لما امكننا القول مع ياقوت انه تتلمذ لابن دريد المتوفى سنة ٩٣٤ . ومهما يكن من أمر فان الحاتمي يفتخر باتصاله بسيف الدولة ، وبان له قصيدة في مدحه ، ذكر منها شيئاً في كتابه المذكور.

في بغداد

اتصاله بالوزير المهلبي

وتمرّ الايام فنرى الحاتمي في بغداد ، متصلاً بالوزير المهلبي ؛ عندما يردها المتنبي ، فيطلب اليه الوزير ان يمدحه ، فيترفع مدّعياً انه لا يمدح غير الملوك. عند ذاك يُغري به الوزير شعراء بغداد فيتحدون على هجوه والتهجم عليه.

زيارته للمتنبي

اما الحاتمي فكان من اشدّ رجال الوزير تحمّساً ، واوفرهم غيظاً على المتنبي ، يتحيّن الفرص لمشاهدته ، ويسخّر الظروف للتحرّش به . حتى اذا رأى الامور تعاكسه ، وشعر ان المتنبي يتغلّب بعظمته على جميع مناوئيه ، وادرك ان الوزير « تخيّل ان احداً لا يقدر على مساجلة ذاك الرجل ولا مجاراته ، وان معزّ الدولة ساءه ان يرد عن حضرة عدوّه رجلٌ فلا يكون في مملكته احد يناله في صناعته ويساويه في منزلته»[2] ، صمّم على قصده في منزله ، فسار اليه في مركب رائع وزيّ جميل ، وهو في شبابه ، على قوله .[3] الا اننا ، اذا سلّمنا بقول ياقوت ان الحاتمي تتلمذ لابن دريد ، كان هذا الشباب اقرب الى

---

١) ياقوت : الكتاب المذكور ، ٦ : ٥٠٣ .
٢) هذا كلام الحاتمي ذاته في ياقوت : الكتاب المذكور ، ٦ : ٥٠٥ .
٣) ابن خلكان : ك . م . ص ٦٤٧

الكهولة ، لان صاحبنا لم يمكنه الاجتماع بالمتنبي الّا بعد سنة ٩٦١ ، وهي سنة رجوعه من مصر . اما المتنبي فلم يكترث له ولم يُقبل عليه في حديثه . فزاد ذلك في غيظ الحاتمي « فتحدّر عليه تحدّر السيل الى القرار »[1] يشتمه ، ويبيّن معايبه ، ويظهر سرقاته ، على اسلوب عجيب رواه الحاتمي بنفسه ، بعد موت المتنبي . وليس لنا على ذلك الا شاهد واحد هو الحاتمي نفسه . فهو الشاهد والخصم والحكم . وعليه فاننا نتلقى هذه الرواية بكل تحفّظ ، قائلين مع ابن خلكان ، وفيه من دقة النقد والدعوة الى الشكّ ما فيه : « فان كان كما ذكر انه ابان له جميعها (اي جميع اغلاطه وسرقاته) في ذلك المجلس ، فما هذا الّا اطلاع عظيم »[2] . . .

على اننا نرى الحاتمي خفف من غلوائه ، وكأنه رضي عن المتنبي بعد تلك المقابلة — وهو يزعم ان المتنبي تذلّل واعتذر — فلم يشأ ان يبخسه حقّه ، بل قال فيه كلمة طيبة في اول « الرسالة الحاتمية » التي كتبها في المقابلة بين ابيات الشاعر الحكمية ، وحكم الفيلسوف ارسطو ، وسترد هذه الكلمة في حينها .

وفاته

ثم لا نقف على شيء يستحقّ الذكر في ما بقي من حياته التي طالت ، على ما يُستنتج من زعم ياقوت بانه ادرك ابن دريد وتتلمذ له . وتوفي الحاتمي يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٨٨٣[3] (٢٧ نيسان ٩٩٨)

اخلاقه

رأينا في ما اوردناه من اقوال الحاتمي ، سواء كان في كلامه عن اتصاله بسيف الدولة او في ذكر مناظرته للمتنبي ، انه كان مدّعياً بنفسه ، متبجحاً بمعارفه ، مترفّعاً على اقرانه ، مدفوعاً بنوع خاصّ من الكبرياء يُكره في

---

١) كلام الحاتمي ، ياقوت ك . م . ٦ : ٥٠٦ .

٢) اطلب نقداً قيّماً لهذه الرواية في المقتطف (١٩٣٠ : ١٨٩ و ٣٢٤) بقلم كامل كيلاني .

٣) ابن خلكان : ك . م . ١ : ٦٤٧

العلماء خاصّة ، لانه في العامة يدعو الى الاشفاق عليهم او التأجين بهم ، اما في العلماء فلا يدعو الّا الى الكره . وهو ما حدث للحاتمي فقد قال عنه الثعالبي ، ونقله ياقوت والسيوطي[١] « انه كان مبغضاً الى اهل العلم » فهجاه ابن حجّاج وغيره من الشعراء باهاجٍ مُرّة ، وابن حجاج هذا كان من جملة شعراء بغداد الذين هجوا المتنبي باغراء الوزير المهلّبي.

الاديب

علومه وشعره

اشتهر الحاتمي بالنحو واللغة وما يتفرّع عنهما من علوم متنوّعة . وعُرف بسرعة الخاطر ، وبسعة الاطلاع وكثرة المطارف ، كما تدلّ على ذلك رسالتاه في المتنبي ، وان لم نسلّم بانه ذكر جميع تلك المقابلات والسرقات على البديهة . وعدّه الثعالبي من « حذّاق اهل اللغة والادب »[٢] وجعله ابن خلكان « احد الاعلام المشاهير المطّلعين المكثرين »[٣]

ونظم الحاتمي الشعر كاكثر علماء عصره ، الّا ان شعره — كما نراه في مرويّات الثعالبي وياقوت والسيوطي — جافّ ، كثير التكلّف اشبه بالتمرين النظمي منه بمولّدات العاطفة والبديهة . وانّ هذه التمرينات كانت من الازياء الادبية في ذاك العصر . ولعلّ اوضح مثال لنوع الشعر المذكور ، ولادّعاء شاعرنا ايضاً ، ما رواه هو نفسهُ في كتابه « الهلباجة » ، او « تقريع الهلباجة » ونقله ياقوت[٤] والسيوطي[٥] ، قال:

---

١) الثعالبي : اليتيمة ٢ : ٢٧٣ — وياقوت : ك. م. ٦ : ٥٠١ — والسيوطي : بُغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مصر ١٣٢٦ هـ. (١٩٠٨) ص ٢٥

٢) الثعالبي : في الموضع نفسه .

٣) ابن خلكان : ك. م. ٦ : ٦٤٦

٤) ياقوت : ك. م. ٦ : ٥٠٤

٥) السيوطي : ك. م. ص ٢٥-٢٦

« كلفني المعروف بالسلامي في ابيات النابغة من مرثية احسن فيها كل الاحسان [1] :

لا جنبيْ الناعي ما يرعون من كلأ ، وما يوقون من اهل ومن مالِ ،
بعد ابن عاتكة الشاوي بلقعة امسى ببلدةِ ، لا عمّ ولا خالِ ؛ [2]
سهل الخليقة مشّاء باقدحهِ الى ذوات الذرى حمّال اثقالِ .
حسبُ الخليلَين نأيُ الارض بينهما : هذا طيها وهذا تحتها بالِ !

« فانه ارادني على فكّ صدورها ، وابدالها بالفاظ تنتظم مع اعجازها في وصف الليل ونجومه . فتناولت القلم وكتبت معجلًا خاطري :

في ليلةٍ ضلّ عنها الصبح داجيةٍ لبستها بطاول الجريِ هطّالِ ،
وقد رمى البين شعب الحيّ ، فاقتسموا ايدي سبا ، بين تفويضٍ وترحالِ :
فناسبت انجم الآفاق عيسهم « وما يوقون من اهل ومن مالِ » ؛ [3]
ترى الهلال نحيلًا في مطالعه « امسى ببلدة لا عمّ ولا خالِ » ؛
والجدي كالطرف يعتزّ المراح به « الى ذوات الذرى ، حمّال اثقالِ » ؛
والليل والصبح في غبراء مظلمةٍ « هذا عليها ، وهذا تحتها بالِ » !

« فاعظم البيت الاخير من هذه الابيات واكبره ، وفخّم امره كل التفخيم وغلا في استحسانه غلوًا تجاوز قدره . »

(له صلة)

---

١) هذه الابيات في رثاء صخار ، اخي النابغة لابيه وامه ، وكان اسم امها عاتكة . وردت في شعراء النصرانية ، للاب شيخو ، ص ٧٢٨ ؛ وفي ديوان النابغة ، طبعة الشيخ عبد الرحمن سلام ، بيروت ١٩٢٩ ، ص ١٤ .

٢) ببلقعة : في الديوان وشعراء النصرانية : على أيوَى .

٣) وناسبت : في السيوطي : وناسب ؛ وهو غلط مطبعي .